مفاتيح الفهم القرآني لمفهوم التفسير من خلال ثلاثية آية الفرقان

إعداد: د/ عمر حيدوسي

أستاذ محاضر ب في التفسير

قسم العلوم الإسلامية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة الحاج لخضر – باتنة

ملخص:

رغم ورود كلمة تفسير مرة واحدة في القرآن الكريم، إلا أنها لم تلق العناية التفسيرية اللائقة بها، ولم يخرج تناول المفسرين لها عن المدلول اللغوي للفسر وهو الكشف والبيان.

وبالرجوع لآية الفرقان ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾، وباستحضار مفاتيح الفهم القرآني للآية وسياقها، وعبر ملاحظة ثلاثية (المثل الشركي–الحق القرآني–أحسن التفسير) نجد أن التفسير عملية اجتهادية واقعية تهدف إلى حل مشكلات الواقع الإنساني ودحض الشبهات المتجددة حول الحق، من خلال اجتهاد العقل المسلم المسدد بالوحي كمرجعية هادية، محصنة له من أسباب الضلال المؤدية لسوء التفسير، والتي بينتها سورة الفرقان، من إعراض وهجر، واتباع هوى ونسيان ذكر.

Summary:

Even the word « explanation: tafsir» is cited in Qur'an only one time in surah el-furquan 33, but we wouldn't find a big interest on it, in the explanations of Qur'an, except some linguistic meanings, like detection.

In reference to the verse and its context, and key words, and by distinguishing the trio (idem-right-explanation), We find that « Tafsir » in the Quoranic contexte is a real work of the muslim mind guided by God to solve the daily problems of human life, and answering its suspicions.

All that must be far from the causes of miss-guidance cited in surah el-Furquan ; such as leaving the truth , following the bad wills and to forget of citations.

التعريف الاصطلاحي للتفسير:

بالعودة لمصنفات التفسير و علوم القرآن نجد حشدا من تعريفات التفسير، رغم أن بعضا منهم يرى أنه أعرف من أن يعرّف، وأنه من العلوم التي لا يتكلف لها حدّ[1].

ومجمل ما قيل في تعريفه لغة أن التفسير من الفسر، وهو الوضوح والبيان والإبانة وكشف المغطى وكشف المراد عن اللفظ المشكل[1]، فتفسير لفظ توضيح معانيه وبيانها والكشف عن المراد منها[2].

---

[1] – محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط4، 1409هـ/1989م، 15/1. وقد تنوقل هذا القول بعد الذهبي منسوبا إليه. ومن اللافت هنا كثرة الأقوال المنسوبة لمجاهيل في قضايا دقيقة ومتفردة كهاته، وكنقل تعاريف لا يعرف صاحبها. وقد لاحظت أن بعض المؤلفين، القدامى خاصة، يؤلف تعريفه الشخصي ثم ينسبه لمجهول، ربما تورعا وتواضعا؟! انظر مثلا صنيع جلال الدين السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، 180/2

والتفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول [3].

هذا لغة، أما من حيث الاصطلاح، فقد تعددت تعريفاته، لكن أشهرها تعاريف أبي حيان والزركشي.

أما أبو حيان الأندلسي فقد ركز في تعريفه على أدوات التفسير.

يعرف أبو حيان التفسير فيقول: هو " علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"[4].

بينما ركز الزركشي في تعريفه على مراحل التفسير –وبالضبط التفسير التحليلي–، يقول الزركشي: التفسير "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه" [5].

بينما ركز بعض المعاصرين على غرض التفسير، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي :"تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه، والتفهم تابع للفهم، فمن حسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه، وإن كتب فيه المجلدات وأملى فيه ألوف المجالس"[6].

على ضوء هذه التعريفات يمكن أن نقول أن **التفسير عملية علمية اجتهادية تفاعلية مع النص القرآني لفهمه وتفهيمه وتنزيله على الواقع الإنساني عبر استحضار قابليات ذاتية واستيعاب وتجاوز قبليات معرفية وتوظيف وسائط منهجية أداء للواجب وتحكيما للقرآن وتأطيرا للواقع وسعيا لمرضاة الله وجنّته.**

التناول التفسيري لآية الفرقان

رغم أن لفظة " تفسير" وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى:

﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾[7]،

إلا أن المفسرين لم يخصصوا لها مساحة معتبرة في تفاسيرهم، لبيان حقيقة التفسير ومفهومه وقضاياه كعلم يمارسونه هم أنفسهم! بل يكتفون غالبا بشرح اللفظ لغة وفي سياق الآية على عادتهم في تفسير النصوص، فكلمة التفسير في الآية، لا تكاد تبتعد عن معناها اللغوي الكشف والبيان.

---

[1] – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر–بيروت–لبنان، ط1، 1968، 361/6.

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1986، 2/ 110.

وانظر: مساعد مسلم عبد الله آل جعفر: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط1405،1هـ/1984م، ص 46.

[2] – أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار قتيبة، بيروت–دمشق،ط1، 1991/1411، ص 16.

[3] – محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، 15/1.

[4] – أبو حيان الاندلسي، البحر المحيط، 13/1.

[5] – برهان الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 13/1.

[6] – الإبراهيمي: مقدمة تفسير ابن باديس، ص 17.

7 – سورة الفرقان: 33.

ولا تكاد تجد معنى جديدا يضفيه جو النص وسياقه، إلا معنى التفصيل المنقول عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، عبر وسيط طبعا، هو الإمام الطبري.[1] أو ما نقله سعيد بن جبير عن ابن عباس–رضي الله عنه–، وأثبته ابن كثير في تفسيره، " أبين وأوضح وأفصح من مقالتهم" [2].

أما الرازي فيذكر أن التفسير البيان والظهور وهو الكشف عما يدل عليه الكلام[3].

هذه عيّنة فقط مما قيل في تفسير " أحسن تفسيرا"، أما عموم معنى السياق فيكاد يجمع المفسرون على أن المعنى: لا يأتيك الكافرون بالحق بشبهة أو اعتراض أو سؤال يخلطون فيه الحق بالباطل إلا جئناك بجوابه وهو القرآن الحق الذي يقطع ذريعتهم ويبطل شبهتهم بأحسن بيان وتفصيل[4].

مفاتيح الفهم القرآني للتفسير:

لذا ومن خلال تأمّل الآية ونظمها، ومن خلال ما مرّ من مادة تفسيرية، وباستحضار مفهوم التفسير وما يتعلق به يمكن استنطاق الآية لتكشف لنا عن مفاتيح قرآنية مهمة في تحديد مفهوم التفسير ومتعلقاته.

1– التفسير جهد بشري مسدّد بالوحي خلافا لأمثال المشركين وشبهاتهم الباطلة المشوبة.

فالآية حوت ثلاثة ألفاظ متقابلة (المثل– الحق– التفسير)، وترتيبها بهذه الصورة في نظم الآية مهم، إذ جاء الحق وسطا بين العقل المسدّد بالوحي[5] الباحث عن "أحسن التفسير" والعقل الشارد عن الوحي الجاري وراء وراء الأمثال والشبهات.

2– الفاعل في "يأتونك" و "جئناك" يبرز جانبا ثانيا يدعم ما سبق، فمصدر الأمثال هو العقل البشري المجرّد، أما مصدر التفسير فهو الله وكتابه الحق وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم–.

ولذا فالتفسير لا يستقيم ولا يأخذ مشروعيته إلا إذا حافظ على مصدريته الإلهية والنبوية عبر النصوص المفسرة والموجهة للفهم[6].

3– المقابلة بين " يأتونك" و " جئناك" وربطها في أسلوب القصر(لا...إلا...) يحمل دلالة مهمة وهي استمرار عطاء النص القرآني كلما استدعي لتفسيره ردا على ما يرد في كل عصر ومصر من أمثال وشبهات واعتراضات تستجد باحثة عن موقف قرآني منها.

---

1 –أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ/2000م، 266،267/19 وانظر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ/206م، 408/15.

2 – الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة، جيزة، مصر، ط 1، 1421هـ/2000م، 304/10.

3 – فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ/1981م، 79/24.

4 – يراجع في ذلك مثلا الطبري: جامع البيان، 267/19. ابن كثير: تفسير القرآن، 304/10. الرازي: مفاتيح الغيب، 79/24. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط1415هـ=1994م، 73/4. البغوي: معالم التنزيل، 83/6.

5 – يستخدم د. طه عبد الرحمن ثلاثة العقل المجرد/العقل المسدد/العقل المؤيد في دراسته القيمة: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1997م، ص17، 58، 121.

6 – لذلك عبرت الآية بالمثل للدلالة على أن العقل الذي لا يستند للحق والوحي إنما يستند إلى التمثيل، أي القياس على سابق، وهكذا كان حال المشركين الذين كانوا يستوردون الشبهات من عند أهل الكتاب ويذيعونها عن القرآن.

وفي هذا دحض لرأي من يظن أن التفسير قد توقف مجال الاجتهاد فيه، وأنه ليس لنا إلا اتباع السلف فيما قالوا، ولا نملك إلا أن نختار أحد أقوالهم ولا نخرج عن مجموعها[1].

4- ويعضد هذا فهم المقصود بضمير الخطاب (الكاف) في ضوء القواعد التفسيرية الجليلة، فـ"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سببه" والخطاب للرسول-صلى الله عليه وسلم- خطاب لأمته.

فالحق وأحسن التفسير هنا ليس قاصرين –كما هو واضح- على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعهده وصحبه، بل هو عام في أمة محمد إلى قيام الساعة.

فما ابتدع المدّ الشركي شبهة ومثلا إلا وجاء الرد الإلهي عبر نصوص القرآن وتفسيرها المعاصر المزامن لتلك الشبهات.

5- وحتى قبل تعميم الضمير، فاختصاصه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) يحمل دلالات مهمة تتعلق بالعملية التفسيرية، فإن أي جهد تفسيري في أي عصر لا بد وأن يعود لعصر التنزيل، فلا غنى له عن سنة رسول (صلى الله عليه وسلم) وأسباب نزول الآيات – محل التفسير- وحوادث عصر النبوة المتعلقة بالموضوع (موضوع الآية)، وكذا تفسير النبي لها-إن وجد-، مع الاستعانة والاستفادة من فهوم الصحابة واجتهاداتهم فاختصاص الضمير بالنبي يضبط المرجعية النبوية للتفسير، كما يبين دور السنة المفسرة كأداة مهمة في التفسير .

6- لفظة "الحق" جاءت معرفة، دلالة على أن النص القرآني مطلق بل الوحي كله قرآنا وسنة – فكلاهما من عند الله- .

وهذا يدل على أن عطاءه التفسيري لا ينتهي مدده، كما سبق البيان، ويدل أيضا على أن التفسير البشري مهما ارتقت درجته ومرتبته يبقى نسبيا، يحتمل الصواب والخطأ، ومن الخطأ الجسيم أن ننقل القداسة من النص الإلهي المطلق " الحق" إلى الجهد البشري " أحسن التفسير"، هذا إذا كان قد استحق وصف الحسن أصلا، وحتى لو كان أحسن تفسير وصله العقل البشري يبقى بشريا غير مقدس.

وعكس هذا ما وقع في تاريخنا للأسف، فقد قدس النص وقدست معه فهوم السلف للنص، وتحول التفسير إلى مجرد ترديد وتركيب وترجيح لأقوال السلف [2].

7- خلافا لكلمة الحق، فقد جاءت كلمة "مثل" غير معرفة بـ (الـ) دلالة على وهنها ونكارتها وعدم ارتكازها على ما يعرفها ويعضدها، فهي بالتالي أمثال شركية غير منهجية ولا ينظمها ناظم، إلا ناظم رفض الحق ومعاداته وإثارة الشبه حوله.

8- بينما جاءت كلمة تفسير مضافة إلى الحسن في أعلى صوره (صيغة أفعل التفضيل: أحسن) وفي هذا دلالة على قبوله ومشروعيته إذا حافظ على ارتباطه بالنص " الحق" الذي عطف عليه في نظم الآية.

---

[1] – من الغريب أن يتبنى مثل هذا القول بعض المعاصرين مثل د.صبحي صالح في كتابه مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط27، 2007م، ص 290.

[2] – الأسعد بن علي: نسبية المعرفة الدينية، ص32،33. عبد الحميد بوكعباش: التفسير والمعرفة الحديثة، ص2

9- أما وصف " أحسن" في حد ذاته، فيحمل دلالات عدة؛ فالواجب على المفسر أن يجتهد ويبذل وسعه ليفسر النص بأحسن تفسير يمكن أن يصله عقله وجهده. ثم إن التفسيرات الواردة للنص منها الحسن والأحسن، وما دامت توصف بالحسن فتحتمل القبح أيضا، فقد يكون التفسير مرفوضا مردودا على صاحبه غير مناسب لمعنى النص ومقامه. و على كل فالمفسر ملزم بأن يختار تفسيرا ويعتبره الأصح وينسبه للنص، وهذا أحد أوجه التفريق بين التفسير والتأويل المذكورة في كتب التفسير وأصوله، فالتفسير القطع بالمراد الإلهي خلافا للتأويل [1]. ثم يحمل وصف الحسن معنى هاما، وهو ضرورة عرض المادة التفسيرية في أحسن صورة لغويا وعقليا وشكليا...

وفي هذا إ شارة إلى حسن اختيار المنهج المعتمد في التفسير.

سياق آية التفسير:

وختاما، لا بد من وقفة سريعة مع سياق الآية.

- فالآية بداية تدل على واقعية العمل التفسيري، فكلما احتاج الواقع إجابات وحلول قرآنية لمشكلاته وقضاياه، تتحرك الجهود التفسيرية لتفسر النص وتسد حاجات الواقع، كما جاء القرآن نفسه وتنزل حسب الوقائع منجما طوال ثلاث وعشرين سنة.

- ثم إن المتدبر لسورة الفرقان تتجلى له أسباب ضلال المشركين وحيادهم عن سبيل الهداية مما دفعهم لضرب الأمثال لمخالفة القرآن ومحاربة أهله، ولخصت السورة ذلك في الإعراض عن الحق [2] واتباع الهوى وتأليهه[3] مع نسيان الذكر[4] وهجران القرآن[5]. ولذلك غدت جهودهم هباء منثورا[6]. وهذا حال المشركين في كل زمان مع كل نبي، وهو ما ركزت عليه الآيات بعد آية التفسير[7]. كما بينت الآيات سوء جزاء المشركين مقابلا بجزاء المؤمنين [8].كما فصلت الآيات بعض أمثال المشركين الكاذبة[9].

- ومن هنا تتبدى لنا بعض المحاذير التي يجب على المفسر اتقاؤها، فالمتعامل مع النص القرآني يجب أن يقبل الحق متجردا بقلبه وعقله مستعدا لهداه، ملازما للذكر قولا وعملا.

---

[1] - قاله الماتريدي، وتناقلته كتب التفسير. ينظر ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير، ص4.

[2] - الآية 3 من سورة الفرقان.

[3] - الآية 43 من سورة الفرقان.

[4] - الآية 18 من الفرقان.

[5] - الآية 30 من الفرقان.

[6] - الآية 23, الفرقان.

[7] - الآيات 31،من 34إلى 39- الفرقان.

[8] - الآيات 10-17.الفرقان.

[9] - الآيات 4، 5، 7، 8، 21.الفرقان. ويراجع السياق التفسيري للسورة في التفاسير المركزة على نظم السورة، ينظر مثلا: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ط1404هـ/1984م، 381/13.

– كما عليه أن يستحضر تجارب الأنبياء عموما والنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– خصوصا ليستثمرها في عمله التفسيري.

– ثم عليه أن يحتسب بعمله رضا الله وجزاءه الأخروي.

– أما النماذج التي ذكرها القرآن فتختزن منهج القرآن في الجدال وردّ الدعاوى ونقضها من أسسها[1].

استخلاص:

من خلال هذه الوقفة مع الآية الكريمة تتجمع لنا مجموعة من الدلالات الموجهة لمفهوم التفسير في القرآن الكريم، تفيد أن التفسير جهد بشري نسبي مسدد بالوحي الإلهي المطلق، وهو اجتهاد مستمر يحتاج لقلب خاشع وعقل خاضع ونفس متقية متجردة عن الهوى، هذا الجهد والاجتهاد يستحضر الواقع ويستفيد من التاريخ ويوظف كل الأدوات المتاحة لحسن فهم النص وتفهيمه للناس وإنذارهم به.

وباستحضار المعنى الاصطلاحي للتفسير، نجد تطابقا شبه كلي بين المعاني المستفادة من النص وسياقه القرآني من جهة، وتعريفات المفسرين من جهة ثانية مع ملاحظة أن التعاريف ركزت أكثر على أدوات التفسير، بينما ركز النص القرآني على الشرائط الروحية والمعنوية الموجهة للعملية التفسيرية والضامنة لنجاحها.

أي بعبارة أخرى أكّد القرآن على الجانب المعنوي (الأخلاقي) فيما أكدت التعاريف على الجانب العلمي الأكاديمي، وبمزاوجة الاثنين يتحقق البعد العملي للتفسير.

مراجع الدراسة:

1. **ابن باديس عبد الحميد:** مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تقديم: محمد البشير الإبراهيمي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1402هـ/1982م.
2. **ابن تيمية تقي الدين:** مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: محمود محمد محمود نصار، مكتبة التراث، القاهرة،
3. **ابن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل** ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة، جيزة، مصر، ط 1، 1421هـ/2000م
4. **ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي:** لسان العرب، دار صادر–بيروت–لبنان، ط1، 1968
5. **أبو حجر أحمد عمر:** التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار قتيبة، بيروت–دمشق،ط1، 1991/1411
6. **أبو حيان الأندلسي،** البحر المحيط، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ/2001م
7. **الأسعد بن علي،** نسبية المعرفة الدينية والمنهج التكاملي في تفسير القرآن، مجلة البصائر، القاهرة،مصر، ع42، س19، صيف 1429هـ/2008م
8. **البغوي الحسين بن مسعود** ، معالم التنزيل، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر، ط4، 1417هـ/1997م

[1] – ينظر مثلا عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1402هـ/1982م.

9. **البقاعي برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر**: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ط1404هـ/1984م

10. **بوكعباش عبد الحميد** ، التفسير والمعرفة الحديثة، رسالة دكتوراه، نوقشت سنة 2003م، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر

11. **الذهبي محمد حسين**: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط4، 1409هـ/1989م

12. **الرازي فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر** ، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ/1981م

13. **الزركشي برهان الدين** ، البرهان في علوم القرآن

14. **السيوطي جلال الدين عبد الرحمن** ، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ط1972

15. **الشوكاني محمد بن علي بن محمد**: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط1415هـ=1994م

16. **صبحي صالح** : مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط27، 2007م

17. **الطبري أبو جعفر محمد بن جرير**: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ/2000م

18. **طه عبد الرحمن**: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1997م

19. **الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب**: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1986

20. **القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر** ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ/206م

21. **مساعد مسلم عبد الله آل جعفر**: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط1405،1هـ/1984م